النضال بين «أثينا» و«أسبرتا» أو الحروب البلوبونيزية ٤٣١–٤٢١ق.م

في الوقت الذي كانت فيه «أثينا» تنمو وتزدهر وتقوى في جمال وروعة كانت «أسبرتا» لا تزال على ما كانت عليه قديمًا من عيشه خشنة ساذجة، فلم يكن لها مبانٍ فخمة ولا تماثيل هائلة ولا نقوش فاخرة، هذا فضلًا عن أن حلف «ديلوس» قد تطور إلى إمبراطورية أثينية، كل هذا قد أهاج شعور الحقد والغيرة في نفوس أهل «أسبرتا». وقد رأت الآن أن مكانتها في بلاد اليونان أصبحت مهددة، وأن تجارتها في خطر، وأن بلاد الإغريق التي كانت في نظرها فيما سبق حرة قد أصبحت مستعبدة في قبضة الأثينيين. فأخذت تجمع حولها شيئًا فشيئًا حلفاء من دويلات أرض الإغريق، كانت تشاطرها أفكارها وغيرتها من «أثينا»، وتعهدت لها ألا تتركها دون مساعدة إذا حلت أية كارثة. وفعلًا حدث أمر خطير عام ٤٣٣ق.م، وذلك أن «كورسيرا»، وهي جزيرة بعيدة عن ساحل «أبيروس» قد تشاجرت مع المدينة التابعة لها، وهي «كورنث» فالتجأت إلى «أثينا» لتساعدها.

وقد كان حادث «كورسيرا» هو الشرارة التي أشعلت النار في كمية من مواد الحقد، التي كانت تتراكم بعضها فوق بعض منذ سنين عدة مضت، فعندما أرسلت نجدة لجزيرة «كورسيرا» لجأت «كورنت» إلى «أسبرتا» تطلب مساعدتها، وبعد جدال طويل أنشبت الحرب أظفارها بين الفريقين. كان في جانب «أسبرتا» كل بلاد البلوبونيز تقريبًا، هذا بالإضافة إلى «كورنث» و«مجارا» الواقعة على برزخ «أثينا» وكل «بوشيا» عدا «بلاتيا» Plataea. وكانت تحتفظ بجيش قوي مدرب متمرن إلى أقصى حد، حتى إنه كان يمكن الاعتماد عليه تقريبًا في كسب موقعة جبارة. وكان في جانب «أثينا» حلفاء قليلون، هذا إلى الخدمة الإجبارية التي كانت تقدمها الأحلاف التي تكون إمبراطوريتها؛ يضاف إلى ذلك

أموال كثيرة ادخرت للحرب، وعدد كبير من الرجال يمكن تجنيدهم في جيشها، وفوق كل ذلك كان لها أسطول قوي يديره بحارة ماهرون. وكما قال «بركليز»: إن الملاحة فن لا يمكن استعماله في الأوقات غير العادية مثل الهواية، وقد كان الأثينيون يمارسون هذا الفن مدة خمسين سنة، وكان لا بد «لأسبرتا» من أن تنفق زمنًا طويلًا؛ لتلحق بهم في فن الملاحة.

ومما تطيب الإشارة إليه هنا أن قصة هذه الحرب قد وضعها للتاريخ المؤرخ «ثوسيديدس»، الذي يعد من أكبر مؤرخي العالم وقد عاش طوال مدة هذه الحرب كلها، وكان أولًا قائدًا ثم مؤلفًا يقظًا لكل الحوادث التي وقعت حتى عام ٤١١ق.م ويكاد يكون هو المصدر الوحيد لدينا عن هذه الحروب وقد سبقت الإشارة إليه هنا.

(١) غزو أتيكا

في نهاية شهر مايو عندما كان القمح قد نضج سارت قوات «أسبرتا» نحو «أتيكا». وعندئذ أتى أهل الريف إلى «أثينا» بنصيحة من «بركليز» لحمايتها، حاملين معهم أولادهم وأزواجهم وأمتعتهم الشخصية؛ أما أغنامهم وحيواناتهم فأرسلوها إلى الجزر المجاورة، وقد استولى الحزن على معظم هؤلاء الناس؛ لأنهم كانوا يسكنون في الأرياف دائمًا، فلما فارقوا أوطانهم ومزارعهم ومحاريبهم التي كانت دائمًا ملكًا لهم إلى مواطن مجهولة لهم في المدينة شعروا بمرارة فرقة هذه الأوطان المحببة إليهم. ولم يجد منهم إلا القليل مأوى يأوي إليه؛ ولذلك فإن سائرهم قد ذهبوا ليسكنوا في المساحات الخالية من المدينة، أو في المعابد والمحاريب — غير «الأكروبوليس» — وفي الأبراج التي في جدران المدينة. وفيما بعد أقيمت لهم أكواخ في المساحة الواقعة بين الجدار الطويل وميناء «بيروس». وقد زحف جيش «أسبرتا» حتى صار على مسافة سبعة أميال من «أثينا»، مدمرين في طريقهم الغلال والمزارع. وقد فكر معظم الناس الذين في المدينة، وبخاصة الشباب منهم أن يخرجوا لوقف هذا العبث في الحال. وقد تجمعوا فعلًا عصابات وتناقشوا بحدة، وقد انفجر الغضب في المدينة على «بركليز»؛ لأنه لم يسر على رأسهم لمقابلة العدو، والواقع أنه رفض عن حكمة أن يقودهم إلى الاشتباك في معركة برية، ولكنه أرسل أسطولًا مؤلفًا من مائة سفينة؛ لتنهب وتستولي على المدن الواقعة على شبه جزيرة «البلوبونيز». ولما نضب طعام الجيش الأسبرتي عادوا إلى وطنهم، ولكن غاراتهم وكذلك الهجمات المضادة لهم حول الساحل على يد الأثينيين كانت تحدث كل سنة تقريبًا في هذه الفترة من الحرب.

وفي نهاية السنة أقيم مأتم عام في «أثينا» من أجل أولئك الذين سقطوا في ميدان الشرف، فكانت عظامهم تحمل في موكب مؤلف من عشر عربات. كما كانت يوجد تابوت خالٍ مغطى بكفن جنازي على شرف أولئك الجنود المجهولين الذين فقدوا، ولم يعثر لهم على أثر مميز لهم. وهذا الموكب تبعته خطبة رثاء ألقاها «بركليز» تحدث فيها بألفاظ متوهجة ممتدحًا بها المدينة التي كانت تعد «مدرسة هلاس»؛ وذلك لأن كل العالم الإغريقي كان يأخذ العلم عنها، فهي المدينة التي تتألف من رجال أحرار محبين للجمال والحكمة. ولا غرابة في ذلك؛ فإنها المدينة التي أنشأت هؤلاء الرجال الشجعان الذين إذا دعا داعي الحرب خرجوا ليموتوا تاركين وراءهم ذكرى لا تموت ولا تفنى.

(٢) الطاعون وسقوط «بركليز»

وفي العام التالي لقيام الحرب ظهر الطاعون في «أثينا»، وانتشر بسرعة بين سكان المدينة المزدحمة والتي كانت في حالة غير صحية، وقد أسهب «ثوسيديدس» في وصف هذا الطاعون الذي أصابه هو ونجا منه، وقد عرف كيف أنه أتى على حين غفلة، وكيف كانت حالته شديدة، وكيف أن الأطباء قد وقفوا أمام هذا الوباء مكتوفي اليدين، ويقول «ثوسيديدس» كذلك: إن الناس الذين نجوا منه ظنوا أنه لا يمكن لأي مرض آخر أن يقضي على حياتهم، وقد جرف هذا المرض ربع سكان المدينة، ولم يعد قط عدد السكان إلى ما كان عليه قبل هذا الطاعون.

ولما استولى اليأس والبؤس على السكان قاموا على «بركليز» ولاموه بغير حق على ما هم فيه وكان ابناه قد ماتا بالطاعون وقد مرض به هو نفسه، ولكنه لم يقضِ عليه، غير أنه لم يسترد صحته منه تمامًا. وعلى الرغم من أن الناس رضوا عنه ثانية وانتخبوه قائدًا، إلا أنه مات في السنة التالية أي: عام ٤٢٩ق.م وهكذا كانت نهاية «بركليز»، وهو الرجل الذي أقام «أثينا» وبنى صرح حياتها بعد حروب الفرس كما أسس الإمبراطورية الأثينية.

وفي خلال ثمانية السنين التالية كان الأثينيون بوجه عام منتصرين، إذ كان في مقدورهم أن يهزموا أسطول العدو، ويحافظوا على أن تكون الطرق البحرية مفتوحة لاستيراد مؤنهم؛ ولكنهم أخطئوا السيطرة الحكيمة التي كان يتصف بها «بركليز»، فكان مثل الدولة كمثل عربة تجرها خيل تشد في جهات مختلفة. ولم يكن هناك رجل مثل «بركليز»؛ ليقودها الآن فيمسك بخيله ويقودها إلى النظام ويسهر على حراسة ومنع أي خطر حوله، دون أن يحول نظره عن الهدف الذي يرمي إليه.

(٣) «كليون» Cleon

و«كليون» يقدم لنا مثلًا من نوع جديد من القواد السياسيين في «أثينا»، فقد كان رجلًا شعبيًّا، وهذا هو نوع القائد الذي استطاع بلغو القول والعنف في الرأي والكلام أن يهز مشاعر الشعب ويتسلط عليه. والواقع أنه كان قاسي القلب، واثقًا بنفسه، وماهرًا. وسنرى من الحوادث التالية صدق اتصافه بهذه الصفات، وسنشاهد أي شخص هذا الذي كانت في يده قيادة الشعب الأثيني فيما يلي:

(١) فقد كانت «ميتيلين» أهم مدينة في جزيرة «لزيوس» التي كانت قد خرجت على «أثينا»، وقد أغرى «كليون» الجمعية الأثينية بأن ترسل أمرًا في الحال بقتل كل الرجال، واستعباد كل النساء والأطفال في هذه المدينة؛ ولكن الأثينيين في اليوم التالي لذلك ندموا على إصدار هذا المرسوم، وأرسلوا سفينة أخرى مسرعة عبر بحر «إيجة» ليلًا ونهارًا لسحب هذا المرسوم، وقد وصلت السفينة في الوقت المناسب، ونجا القوم من هذا الحكم الجائر. وقد ترك «كليون» في «أثينا» ساخطًا على هذا الضعف في معاملة الثوار الذين يجب أن يعاملوا بما يستحقون مظهرًا للكل أن العصيان معناه الموت.

(٢) ويروي لنا التاريخ حادثة أخرى عن تعنت «كليون»، وذلك أن القائد «دموستين» القوي البأس — وهو غير الخطيب الشهير الذي سنتكلم عنه فيما بعد — استولى على رأس من الأرض يسمى «بيلوس» عام ٤٢٥ق.م يقع على الساحل الغربي من جزيرة «سفاكتيريا» Sphacteria، وبذلك سد الطريق في وجه أربعمائة وعشرين لاسيدموني في جزيرة «سفاكتيريا» جنوبي «بيلوس». وقد حزن أهل «أسبرتا» على هذا الاستيلاء على جزء من أراضيهم، وعلى حصار رجالهم لدرجة أنهم أرسلوا رسلًا إلى «أثينا» يعرضون عليها الصلح والمهادنة، غير أن ذلك لم يرق في عيني «كليون» وحزب الحرب، قائلين بأنهم قد استولوا الآن على شيء، فلا يمكن التخلي عنه ويطلبون المزيد طمعًا وانتقامًا في مقابل فك الحصار عن هؤلاء التعساء أكثر مما يجب، مما اضطر الرسل إلى مغادرة «أثينا»، دون الوصول إلى نتيجة مرضية. والآن يتساءل المرء كيف كان يمكن أن يصبح تاريخ «أثينا» مختلفًا إذا كان على رأسها ناصح أعقل من «كليون» هذا؟ نرى بعد ذلك «كليون» ثانية في الجمعية العمومية موبخًا القواد لجعلهم حادثة «سفاكتيريا» تجر في أذيالها ببطء دون عمل حاسم، ويقدم لنا المؤرخ «ثوسيديدس» بيانًا حيًّا عن هذا المشهد، فقد أشار «كليون» إلى «نيسياس» Nicias أحد القواد مفاخرًا بأنه هو الذي يمكنه أن يستولي على

الجزيرة، إذا كانت قيادة الجيش في يده. وقد دهش عندما أخذته الجمعية بكلمته، وقد انفجروا بالضحك عندما أعلن أخيرًا أنه سينهي هذا الحادث في مدى عشرين يومًا، وكم كانت دهشتهم عندما عاد بالأسرى الأسبرتيين مما جعله بطل الساعة. ولم تمدنا الأخبار عن هذا القائد «دموستين» الذي قام بمعظم عبء هذا العمل هل نال شيئًا عن الشكر؟ وبعد ذلك بثلاثة أعوام قتل «كليون» والقائد الأسبرتي «براسداس»، الذي انتصر على الأثينيين في موقعة حاسمة في «مقدونيا» في نفس الحرب. وكان كل من «أسبرتا» و«أثينا» وقتئذ قد ملت الحرب، وتعبت بعد استمرارها عشر سنين، فعقد بينهم صلح يدعى صلح «نيسياس» على أن يسلم كل فريق ما عنده من الأسرى، وما فتحه من أرض عام ٤٢١ق.م، غير أن هذا كان صلحًا مضطربًا فقد أعقب إمضاءه مباشرة القلاقل والمشاحنات، وعمل محالفات ونقضها وهذا ما ينافي السلام مع كل الوجوه.

(٤) الحملة على «صقلية»

وعلى أية حال فإن ما جلبه صلح «نيسياس» هذا هو إخماد نار الحرب لمدة سنتين أو ثلاث، وفي خلالها كانت أحلاف ومحالفات كثيرة تعقد بين حكومات بلاد الإغريق المختلفة، حتى إنه كان من العجب أن حكومة من هذه كان في استطاعتها أن تعرف صديقها من عدوها من الحكومات الأخرى، فكان حلفاء «أسبرتا» حانقين عليها؛ لأنها عملت ما هو صالح لنفسها في هذه المعاهدة، ولم تهتم بمصالحها. هذا إلى أن كثيرًا من المدن المستولى عليها عارضت في أن تعود ثانية إلى حكامها السابقين، كما نصت على ذلك المعاهدة. وقد عقدت كل من «أسبرتا» و«أثينا» فيما بينهما اتفاقًا يقضي بإجبار حلفائهم على إطاعة ما جاء في المعاهدة من شروط.

وتدل شواهد الأحوال على أن «أثينا» كانت لا تهتم بشيء إلا بزيادة أملاك إمبراطوريتها، وكانت تحكم وقتئذ الجزر التي في شرقي بلاد الإغريق، ولكنها لم تكتفِ بذلك بل تطلعت إلى جزيرة صقلية، ومن ثم أخذت تفكر في ذلك.

وقد رأينا فيما سبق كيف أن مدنًا إغريقية قد أقيمت حول ساحل البحر الأبيض المتوسط، وبخاصة حول «صقلية» وفي جنوب إيطاليا. وكانت «سرقوصة» مستعمرة أسستها «كورنث» فيما مضى هناك حوالي ٧٣٤ق.م وقد أصبحت الآن أقوى مدينة في صقلية، وكان حكامها المطلقون يعيشون في بذخ وقوة كأنهم ملوك، وقد اجتذبت كثيرًا

من عظماء بلاد الإغريق إلى بلاطها، ونخص بالذكر منهم «إيسكيلس» الذي وفد إليها من «أثينا» و«بدار» من «طيبة»، هذا إلى كثير غيرهما، وكانت المدينة من القوة والتشجيع للفنون والعلوم بحيث أصبحت تلقب «أثينا الغرب». وقد أدى كبرياء «سرقوصة»، وغرورها إلى أن أعلنت الحرب على بعض مدن «صقلية»، وكانت معاملتها الغاشمة وطرقها التي لا تطاق «قد جعلت أهل هذه المدن يحقدون عليها بعد أن ظلوا سنين عدة أحرارًا في مدنهم. وكانت «أثينا» على ود ومصافاة مع بعض هذه المدن، وبذلك انتهزت هذه الفرصة لتمد سلطانها ونفوذها على «سرقوصة» خوفًا من ازدياد سلطان الأخير. ولكن يتساءل المرء هل كانت «سرقوصة» تهدد فعلًا مواردها من الغلال الآتية إليها من «صقلية»، وأن هذه كانت الفرصة السانحة أمامها لمد إمبراطوريتها نحو الغرب كما كانت تريد؟ وجوابًا على ذلك يجب أن نعود إلى «أثينا»، ونرى أي صنف من الرجال قد أخذوا على أنفسهم الإجابة على هذين السؤالين.

كان «نيسياس» الذي سمي باسمه الصلح الذي لم يدم إلا مدة قصيرة رجل دين ثريًّا أمينًا ومحترمًا ومحبًّا للسلام، معتدلًا في تصريف الأمور. وقد أظهر براعته في قيادة الجيش، غير أنه كانت تنقصه القوة والعزيمة اللازمتان للقيام بالواجب الملقى على عاتقه. وكان عليه لإنجاز هذا الواجب أن يعمل مع رجل على طرفي نقيض منه من حيث الأخلاق والأفكار.

هذا الرجل هو «ألسيبيادس» Alcibiades، فقد كان شابًّا لامعًا مشرق الطلعة، وقد نشأ في أحضان الحياة الناعمة والترف، ولم يلبث بعد ذلك أن وقع تحت سحر المالقين الذين نفخوا في أوداجه بأنه سيفوق كل القواد، ورجال السياسة الآخرين حتى «بركليز» نفسه. ومن أجل هذا لم تستطع تعاليم الفيلسوف «سقراط»، الذي كان يكن له احترامًا حقيقيًّا ومحبةً خالصةً أن تتغلب على كل هذا الملق أو تثني عقل «ألسيبيادس» عن عزمه. والواقع أنه كان لا يتحول عن هدفه ولا يخضع لقانون، ولا يعرف معنى أن يكون مستقيمًا وشريفًا؛ غير أن كثيرًا من المواطنين قد أخذوا ببلاغته ومباهاته، وكانوا على استعداد أن يتبعوه في كل مشاريعه الجريئة. وكان في تلك اللحظة يعمل لنقض السلام، ويكون في عقله فكرة القيام بحملة عظيمة على بلاد الغرب، فقد كان يظن أنه في مقدوره أن يضم إلى إمبراطورية «أثينا» تحت قيادته اللامعة القوية «صقلية» و«قرطاجنة»، وساحل أفريقيا وإيطاليا.

وقد انتهز الفرصة المواتية. ففي عام ٤١٦ق.م نشب شجار بين بلدين من بلاد «صقلية» هما «سلينوس» Selinus التي كانت تعضدها «سرقوصة» و«سجستا» Segesta

وكانت حليفة «أثينا». وجاء الرسل من «سجستا» إلى «أثينا» طالبين النجدة، على أن يدفعوا كل مصاريف الحملة، وجوابًا على ذلك أرسل مبعوثون من «أثينا»؛ ليروا، إذا كانت «سجستا» يمكن أن تنفذ وعدها، وقد احتفل بالبحارة في بيوت المدينة الواحد بعد الآخر، وأقيمت لهم موائد مجهزة بأقداح الشراب المصنوعة من الذهب والفضة، وقد رأى الضيفان عددًا عظيمًا من الأواني المقدسة كذلك في خزانة المعبد. وقد أخذ الأثينيون بكل هذا الثراء وأثروا على «ألسيبيادس» بما رأوه وصوتوا للحملة على «سرقوصة». وقد رفضوا الإصغاء إلى «نيسياس»، عندما حذرهم من الشروع في إشعال نار حرب أخرى ليس لها ما يبررها، وفي حين أن بلادهم كانت «لا تزال في وسط الأمواج». وقد وضعوا الحملة برياسة «نيسياس» و«ألسيبيادس»، وقائد من الجنود العاملين المشهور لهم يدعى «لاماكوس» Lamachus. وفي أثناء أن كانت الاستعدادات قائمة على قدم وساق أزعج الأثينيون ذات صباح حينما وجدوا «هرمًا»،[1] التي كانت منصوبة في محاريب وعند أبواب بعض البيوت قد هشمت وجوهها، وكسرت في أثناء الليل بأيدٍ مجهولة. وقد اشتبه في أمر «ألسيبيادس» وصحبه، وعد ذلك أنه هو نوع السلوك الجنوني الذي قد انغمسوا فيه، وقد كان الهياج بسبب ذلك بالغًا أشده، وأن مثل هذا الانتهاك لحرمة الإله كان يعد فألًا شؤمًا للحملة، ومن الجائز أن ذلك العمل المشين كان جزءًا من مؤامرة على الديموقراطية؛ ومع ذلك فإن الحملة قد تحركت نحو غرضها المنشود في منتصف الصيف ومعها «ألسيبيادس».

وقد وصف لنا «ثوسيديدس» تلك الحملة الشهيرة وصفًا بارعًا، ففي فجر اليوم المحدد ذهب الأثينيون إلى ميناء «بيروس»، وأخذوا في تجهيز السفن. وقد ذهب كان فرد من المدينة تقريبًا كذلك ليودع الأصدقاء والأقارب والأبناء يحدوه الأمل والأسى، أما الأمل فكان للحصول على مغانم جديدة، وأما الأسى فكان لخوف ألا يرى ذويه ثانية، ولكن الجميع قد دبت في نفوسهم الشجاعة عندما نظروا إلى قوة أسطولهم وجماله، وكان كل صاحب سفينة حربية يعمل جهده في أن تظهر سفينته بأنها تفوق السفن الأخرى في السرعة والجمال، وفي رجالها المحاربين، وكانوا رجالًا منتخبين، قد ينافس بعضهم بعضًا في حسن التسلح للحرب.

وعندما جهزت السفن وكان كل شيء على ظهرها نفخ بوق ليسود السكون، ثم قاد الجميع حاجب للقيام بالصلاة المعتادة قبل السفر، وقد انضمت إليهم الحشود الذين

[1] وهو تماثيل نصفية للإله «هرميس» على عمد مربعة.

كانوا متجمعين عند الشاطئ في إقامة هذه الصلاة. وبعد ذلك أنشد البحارة صلاة للإله «أبوللو»، وساروا في البحر يقودون مائة وأربعًا وثلاثين سفينة حربيةً وسفنًا أخرى كثيرة تحمل على ظهرها سبعة وعشرين ألف مقاتل. وقد أبحروا أولًا في صف واحد، وتسابقوا حتى «أجيتا» ومن ثم أسرعوا إلى «كورسيرا»، حيث كانت سفن حلفائهم متجمعة؛ ومن ثم أبحروا إلى الغرب. وعندما اقتربوا من «صقلية» سمعوا أنه لم يكن في «سجستا» إلا القليل جدًّا من المال الذي وعدوا به، وأن الأواني الذهبية المقدسة كانت فضة مذهبة، وأن أواني الشرب من الذهب والفضة التي كانت معروضة على موائد مضيفيهم قد جمعت من «سجستا»، ومن غيرها من المدن ونقلت من بيت إلى بيت للتمويه بإعطاء فكرة كاذبة عن ثروة المدينة. حقًّا كانت هذه أخبار سيئة غير أنهم قرروا المضي في القيام بحملتهم، وقد عملوا بنصيحة «ألسيبيادس» فلم يهاجموا «سرقوصة» في الحال، بل اجتهدوا أولًا أن يكسبوا إلى جانبهم المدن الأخرى. وعلى أية حال فإن هذا التصميم قد خاب؛ لأنه لم يستقبلهم بالترحاب إلا مدينة «ناكسوس» Naxos في حين كان لدى «سرقوصة» الوقت للاستعداد للدفاع عن نفسها. وقد حضر إلى «ناكسوس» سفينة شراعية على جناح السرعة من «أثينا» عادت «بألسيبيادس»؛ لأجل أن يحاكم بسبب تهشيم تماثيل «هرما»، ولكن الأسطول الأثيني أقلع إلى «سرقوصة»، وعلى الرغم من كل هذه العوائق والمنغصات بقيادة «نيسياس»، فإنه أنزل جيشه وأخذ في تضييق الخناق على المدينة بإقامة جدار من الجنوب والشمال، وقد كان أهل «سرقوصة» في يأس تقريبًا؛ لأنهم عندما أرادوا أن يقطعوا الجدار ببناء جدران مضادة كان الأثينيون أسرع منهم فصارت أعمال البناء تمتد نحو الساحل الشمالي أقرب فأقرب؛ وبالإضافة إلى ذلك كان الأسطول الإغريقي الآن في مينائهم الكبير. وعلى أية حال فإن الحظ انقلب على الأثينيين؛ لأنه في الحرب التي دارت حول الجدار الذي كان لم يتم، قتل «لاماكوس» ومما زاد الطين بلة أن «بيسياس» الذي تركه وحده في القيادة أصابه مرض.

وفي تلك الأثناء هرب «ألسيبيادس» من السفينة التي كانت تحمله إلى «أثينا»، واتخذ طريقه نحو «أسبرتا». وهناك انقلب إلى خائن على بلاده فقد أخبر الأسبرتيين كيف يمكنهم أن يلحقوا الأذى بالأثينيين فعملوا على حسب نصيحته، وأرسلوا إلى «سرقوصة» قائدهم «جليبيبوس» Glypippus. وقد عمل بقوة ونشاط حتى أوقف الأثينيين عن إتمام جدارهم، وهزمهم في القتال الذي دار حوله.

وقد أرسل الآن «دموستين» من «أثينا» بجيش وأسطول لمساعدة «نيسياس»، وقد حثه على إنزال رجاله في السفن الأثينية في الميناء الكبير. ولسوء الحظ حدث كسوف للقمر

عندما كانوا قد بدءوا في إنزال الجنود، وقد ظن «نيسياس» المتشائم أن هذه ظاهرة على أنه يجب عليهم أن ينتظروا حيث كانوا لمدة سبعة وعشرين يومًا. وعندما حل الوقت الذي رضي أن يتحرك فيه بجيشه كان أهل «سرقوصة» قد سدوا مدخل الميناء، وبذلك أصبح الأمل الوحيد الذي أمام الأثينيين هو أن يخترقوا الحاجز إلى عرض البحر.

(٥) موقعة الميناء سبتمبر سنة ٤١٣ق.م

نزل الجيش إلى السفن وجهزت، ثم وقعت واقعة عظيمة في الميناء. ومن البدهي أنه في المياه الضيقة المزدحمة بالسفن كان لا يمكن أن يوجد نظام في الحرب، فقد اشتبكت سفينة أخرى في كل أنحاء الميناء؛ وعندما كانت الواحدة تلتصق بالأخرى كان بحارتها يتحاربون بالأيدي في وسط أصوات السفن المتصادمة، والأصوات العالية المنبعثة من القيادة. وكان يقف على الشاطئ سكان المدينة، كما كان الأثينيون يقفون في معسكراتهم مراقبين المعركة بين الرجاء واليأس، وفي النهاية أجلى الجيش السراقوصي مراكب الأثينيين إلى الشاطئ، واندفع البحارة طالبين النجاة في معسكراتهم.

(٥-١) التقهقر

أخذ بعد ذلك الجيش الأثيني يتقهقر على اليابسة غربًا، ولكنه وجد طريقه قد سدت في وجهه بالعدو، فعادوا جنوبًا وفي ليلة اليوم السادس من تقهقرهم فرق الظلام بين الفيلقيْنِ اللذين كان يتألف منهما الجيش. وقد كان هذا الحادث بداية النهاية. فحوصر «دموستين» في خميلة من الزيتون وأجبر على التسليم، أما «نيسياس» الذي كان على رأس فيلقه الثاني، فقد شق طريقه محاربًا حتى وصل إلى مجرى ماء، فوجد العدو أمامه على الشاطئ الثاني للنهر؛ وقد هجم رجاله إلى الماء ليطفئوا ظمأهم، ولما كان كثير منهم بعيدًا عن إخوانه، فإن العدو انقض عليه وقتله، وكذلك قتل كلًّا من «دموستين» و«نيسياس»، وسيق كثير من الأسرى ليعملوا في قطع الأحجار من محاجر «سرقوصة»، ومن بقي منهم على قيد الحياة بيعوا عبيدًا. وقليل منهم حررهم أسيادهم في مقابل أنهم ألقوا عليهم خطبًا أو أناشيد من شعر «يوربيديز»، ووصلت القلة القليلة منهم إلى وطنهم ليقصوا قصة مصابهم. وعلى الرغم من الأخبار المخيفة التي حملوها، فإن «أثينا» رفضت أن تستسلم لليأس وبنت أسطولًا جديدًا.

وفي هذا الوقت كان «ألسيبيادس» قد تشاجر مع «أسبرتا»، ثم ذهب عند الفرس الذين كانوا يشجعون حلفاء «أثينا» على القيام بثورة. ولم نلبث أن رأينا «ألسيبيادس» يقلب ظهر المجن للفرس، وطلب أن يعود ثانية إلى «أثينا» فاستدعته فعلًا، ولكن على الرغم من أنه قد ساعدها على أن تنال نصرًا في البحر، فإنه اتهم بالخيانة مرة أخرى فعُزل ونُفي، ثم اعتزل في قصره بالقرب من «هلسبونت» وفيما بعد ذهب إلى «فريجيا»، حيث حوصر بيته بأمر من «أسبرتا» بجنود من الفرس وقتل.

(٥-٢) سقوط أثينا

على الرغم من أن «أثينا» قد فقدت معظم حلفائها، فإنها استمرت في الحرب بعد ذلك تسع سنوات أخرى، وقد انتصرت بعض انتصارات هامة بحرًا، ولكن في نهاية الأمر سارت كل من «أسبرتا» والفرس بأسطول عظيم لمحاربتها في «أجوسبوتامي» Aegospotami الواقعة على «هلسبونت» عام ٤٠٥ق.م فهزماها شر هزيمة وقد أجبر «ليساندر» القائد الأسبرتي آخر حلفاء «أثينا» على أن يخضع له، وحاصر «أثينا» نفسها ومنع عنها مواردها من الغلال حتى سلمت، ولكنه لم يخرب المدينة؛ لأنها قامت بخدمات عظيمة لبلاد الإغريق في زمن محنتها في الماضي، غير أنه أجبرها على أن تنزل عن إمبراطوريتها وكل سفنها إلا اثني عشرة سفينة، كما جعلها تهدم جدرانها الطويلة وحصونها في «بيراوس» Piraeus، وكان على «أثينا» أن تكون حليفة «لأسبرتا»، وما عدا ذلك فإنها كانت فيه حرة.

وفي خلال مدة الثمانية عشر شهرًا التالية لم يكن هناك سلم أو أمان في «أثينا»، فقد قام حزب يرمي إلى جعل «أثينا» تحكم بالأقلية، وقد استولى ثلاثون من هذا الحزب على السلطات بقيادة «كريتاس» Critias. وفي مدة قصيرة أطلق عليهم اسم الحكام الثلاثين المستبدين. وفي خلال مدة حكمهم القاسي قتل مئات من الديموقراطيين ونفي كثير، ولم يُقْضَ على هذه الفوضى وسفك الدماء إلا بعد قتل «كريتياس» في حرب مع أنصار الديمقراطية، ثم أتى ملك «أثينا» ليصلح بين الحزبين وبمساعدته نُفي الحكام المطلقون، وأعيدت الديمقراطية إلى ربوعها عام ٤٠٣ق.م.